حلب في الأدب التركي الحديث
مؤلفات علي كمال نموذجًا

عبد الستار الحاج حامد
جامعة أولوداغ-بورصة- جامعة اسطنبول

Abstract

Ali Kamal is a Turkish politician, novlist and jounalist. He is one of the most prominent thinkers and writers in Turkish literature. Kamal was banished to the state of Aleppo in 1889 and executed in 1889 because of his political attitudes. Ali Kamal had lived in the state of Aleppo for six years. During this period, he worked in different jobs. He wrote two novels in that period, their events revolve in Syria. He had the opportunity to learn about the state and its various regions. In his compositions, he gave a good space for the state especially in his memoirs and novels. The author gave valuable information which highlights the political, social, economic and cultural life of the state of Aleppo in the last decade of the nineteenth century. He talked about the pros which he saw in the state and he didnot neglect to mention its drawbacks. Also, he gave some western tales related to its people.

Key words: Ali Kamal, The modern Turkish litrature, Aleppo state, Memoir.

أعطى الأدب التّركيّ الحديث، الذي يؤرخ لبدايته بعام **1839**م مع صدور مرسوم التنظيمات1** في الدولة العثمانيّة، مكانةً هامةً لولاية حلب، وبشكلٍ خاص في الفترة التي كانت فيها تحت سيطرة الدولة العثمانيّة. فولاية حلب كانت من أكبر وأهم الولايات العثمانية، لموقعها الاستراتيجي، وأهميتها الإقتصادية،

حيث كانت تشمل كل من إدلب والرقة ودير الزور وحماة في سورية، إضافة إلى أنطاكية وكلس وعينتاب الواقعة ضمن حدود الجمهورية التركية.

ثمة قسم لا بأس به من الأدباء الأتراك عاشوا قسماً من حياتهم في ولاية حلب، فمنهم من عاش طفولته فيها، مثل الروائيّة والكاتبة فاطمة عالية جودت، والروائي محمد جلال، ومنهم من عمل فيها فترة من الزمن، من أمثال الشاعر والطبيب المشهور جناب شهاب الدين، والروائيّة خالدة أديب أدوار، والروائيّ نابي زادة ناظم، ومنهم من نُفي إليها، مثل الكاتب والسياسيّ الكبير علي كمال، والروائيّ رفيق خالد قايا. لذلك كان من الطبيعي أن يُفرد هؤلاء الكتاب لتلك البلاد في كتاباتهم، ولا سيما في جنسي الرواية والمذكّرات، حيزاً لا بأس به.2

إن أول رواية تناولت حلب في الأدب التركي رواية(فلسفهء زنان)(فلسفة النساء) للكاتب أحمد مدحت أفندي (1844–1912)، وسبب حديث الكاتب عن حلب هو تعين أحد شخصيات الرواية محسن باشا والياً على حلب، ومرافقة بطلة الرواية زكية خانم له إلى مدينة حلب. في هذه الرواية تحدثت زكية خانم عن حلب من الناحية الجغرافية في أول رسالة أرسلتها لأهلها في إسطنبول، وتناولت في حديثها حرارة الصيف في حلب التي تجعل الناس فيها ينامون على سطوح منازلهم هرباً من الحر.2 كما تحدث الطيب والشاعر جناب شهاب الدين (1870– 1934) في كتابه (سورية مكتوبلر) (رسائل

سورية) عن مدينة حلب التي زارها بداية القرن العشرين ذاكراً قلعة حلب، ومقبرتها الكبيرة، وبيوت قراها التي ليس لها نوافذ، وفلاحي تلك القرى الذين يعملون بجد لإحياء أراضيهم.3

أما الطبيب والسياسي شرف الدين مغمومي(1860–1931) فقد أفرد صفحات عن حلب في مذكراة التي جُمعت في كتاب (بر عثمانلى دكتورنك أنلرى) (مذكرات طبيب عثماني)، حيث زار المدينة مع مجموعة من الأطباء في فترة انتشار وباء الكوليرا في أواخر القرن التاسع عشر. تحدث المغمومي عن مدينة حلب بالتفصيل مقارناً أسواقها بأسواق إسطنبول، مبدياً إعجابه بقلعتها، وبموقعها الاستراتيجي، متذمراً من ضيق شوارعها، ونمط بناء بيوتها، ذاكراً أهم منتزهاتها ومزاراتها ومعابدها ومساجدها والمركز العلمية فيها.4

ومن الروائيين الذين تناولوا حلب في رواياتهم الروائي رفيق خالد قايا (1888–1965) الذي نفي إلى حلب1922 وأصدر فيها جريدة، كما طبع بعض رواياته فيها. في رواية (المنفى) التي تجري أحدثها في إسطنبول وحلب وبيروت حيث يسافر حلمي أفندي بطل الرواية إلى بيروت تاركاً ابنته وزوجته في إسطنبول بعد صدور قرار نفي بحقه، لينتقل بعد فترة من الزمن من بيروت إلى حلب التي جاءت إليها ابنته للعمل في ناد ليلي فيها، وتقود الصدفة

حلمي إلى هذا النادي مع مجموعة من المسؤولين، ويصاب بجلطة قلبية عند رؤية ابنته في النادي.5

في هذا البحث سنتوقف عند مؤلفات واحد من أهم هؤلاء الكتاب، وهو الكاتب والسّياسيّ والصّحفيّ المشهور علي كمال، الذي تكمن أهميته في كونه رجل سياسة وفكر، إضافة لكونه أديباً وشاعراً عاش في حلب ما يقارب ستّ سنوات في الفترة مابين عامي 1889-1895 م،كما كتب روايتين؛ (الأختان)و(مغامرة في الصحراء) تدور أحداثهما في ولاية حلب، واختار شخصيات هاتين الروايتين من السكان المحليين والموظفين الأتراك في سوريّة.

1- حياة علي كمال وآثاره

ولد علي كمال في حي السُّليمانيّة أحد أقدم أحياء إسطنبول في 1869 م لأسرة غنيةٍ، وذات صلة بكبار الموظفين في قصر السّلطان العثمانيّ. كان والد علي كمال تاجراً كبيراً ،ورجلاً متديناً، يمجد السّلطان والدولة العثمانيّة، أما أمه فقد كانت جارية جركسيّة. درس علي كمال في مكتب الرشديّة إلا أنه، وبسبب مشاكله الكثيرة، طُردَ بعد سنوات من اِلتحاقه به، بعدها التحق بدكان والِده مع مواظبته على متابعة الدروس في جامع السّليمانيّة، جذب علي كمال الذي كان صاحب ذكاء انتباهَ بعض المسؤلينَ في القصر الذين كانوا على صلةٍ بوالده فتوسطوا له، وأعادوه إلى المكتب. تتلمذ على كمال في مكتب الملكيّة على أيدي أساتذة كِبار في الأدب

التّركيّ، من أمثال الشّاعر والنّاقد معلم ناجي، والشّاعر والكاتب رجائي زاده محمود أكرم، في عام **1885** أصدر على كمال برفقة أصدقائه في مكتب الملكيّة أول جريدةٍ له، ولم يتجاوز يومها السّابعة عشرة من عمره، نشر فيها بواكير أشعاره وبعض كتاباته. وفي عام **1887** قرَّر مع صديق له الهرب إلى فرنسا لمتابعة دراسته هناك، إلا أنه ما لبث أن عاد بعد سنةٍ بسبب وفاةِ والدِهِ. عادَ علي كمال من فرنسا بأفكارٍ جيدةٍ حملها معه، فأراد أن يؤسس جمعيةً طلابيةً في مكتب الملكيّة كتلكَ التي رآها في فرنسا، لكن مالبث أن قُبض عليه مع زملائه أثناء اجتماع الجمعيّة السِّري الثاني الذي كان يترأسه في منزله، وبعد التحقيق معه سجن لمدة ستة أشهر نُفي بعدها إلى ولاية حلب في عام **1889**م .حضر علي كمال إلى حلب برفقة عائلته الصغيرة ليعمل أولاً كاتباً في الولاية ثم مفتشاً وجابياً للضرائب يجوبُ المناطق والمدن المجاورة لحلبَ، كما عمل فترة من الزمن مدرساً للّغة التّركيّة في المكتب الإعداديّ في حلب، عُرف علي كمال بين زملائه بنزاهته وبتفانيه في عمله. في عام **1895** م عاد إلى إسطنبول، لكنه مالبثَ أن غادرها من جديدٍ إلى فرنسا، حيث درس الحقوق والسياسة، كما عمل خلال تلك الفترة مراسلاً لجريدةِ (إقدام") الإسطنبوليّة في باريس، وانضمَّ إلى صفوف حركة "جون ترك" المعارضة إلا أنه غادر صفوفها سريعاً لقناعته بعدم جدواها ليلتحق بوظيفة كاتبٍ في سفارة الدولة العثمانيّة في سويسرا. في عام **1900**م توجه إلى مصر حيث عمل مديراً في مزرعةٍ لأحد باشوات

العثمانيين هناك، ولكن حدثت مشكلةٌ بينه وبين صاحب المزرعة ترك مصر عام **1908**م ليعود إلى إسطنبول برفقة زوجته الإنكليزيّة التي تعرف عليها عندما كان يقضي عطلته في بريطانيا. وبعد عودته إلى إسطنبول عمل رئيس تحرير في جريدة (إقدام)، لكن وبسبب إنقلاب **31** أذار غادر اسطنبول إلى أوروبة، ولم يعد إليها إلا بعد إصدار عفو عام **1912**م بعد الإطاحة بالإتحاديين الذين كانوا سبباً لمغادرته إسطنبول. بعد عودته أصدر جريدة الصباح، وأسّس حزباً سياسياً. كما عين مدرساً في جامعة إسطنبول، وفي عام **1919**م شغل منصب وزير المعارف لمدة شهرين، ثم شغل بعدها منصب وزير الداخليّة بضعة أشهر.**6** علي كمال عاش حياته معارضاً للسُّلطة، فقد انتقد سياسات السّلطان عبد الحميد، وانضمَ إلى معارضيه فترة من الزمن، كما كان خصماً قوياً لحركةِ الاتحاد والتّرقيّ، وللحركة الوطنيّة بقيادة مصطفى كمال أتاتورك، حيث انتقدَ هاتين الحركتين في كتاباته الأمر الذي أدى لإعدامه ميدانياً دون محاكمةٍ في إزميت عام **1922** م بعد نجاح الحركة الوطنيّة في الوصول إلى إسطنبول.

علي كمال وإن كان قد عارض بعض سياسات الدولة العثمانية وانتقدها في مقالاته، إلا أنه بقي طوال حياته مدافعاً عن الخلافة العثمانيّة، الأمر الذي جعل الروائيّ بيامي صفا(**1899**-**1961**) يقول☹السياسة العثمانية أُعدمت ميدانياً مع علي كمال في إزميت)**7**

يتقن علي كمال التركيّة والعربيّة والفرنسيّة والإنكليزيّة، وخَلّفَ العديد من الكتب والروايات أهمها: عُمري (مذكرات نشرها على شكل مقالات في جريدة الصباح أولاً ثم جُمعت في كتاب بعد وفاته)، صفحة التّاريخ، الأختان(رواية)، مغامرة في الصحراء(رواية)، فترت(رواية)، رجال الاختلال، صفحة الشَّباب، تونس، راشد مؤرخ أم شاعر، علم الأخلاق، إضافة لعدد من الكتب التي ترجمها عن الفرنسية، ناهيك عن مقالاته الأدبية والسياسيّة التي تزيد عن **1000**مقالة، عرف من خلالها بأسلوبه القويّ وجرأته.كما تُرجمت بعض أثاره إلى اللغة الفرنسيّة**8**.

2- حلب في مذكرات علي كمال

عاش علي كمال في حلب بين عامي **1889** و**1895**م، وبحكم وظيفته كمفتشٍ وجابٍ للضرائب أتيحت له فرصة التجول في مختلف مناطق الولاية، والتّعرف على السكان المحليين والبدو، إضافة للموظفين والولاة الأتراك الذين كانوا يعملون هناك، وقد تحدث في مذكراته المسماة (عُمري) بشيء من التّفصيل عن ولاية حلب.

2.1- الحياة السياسية.

2.1.1- ولاة حلب

تحدث الكاتب في مذكّراته عن ولاة حلب الذين عاصرهم مبرزاً سلبيات وايجابيات كل والٍ من هؤلاء الولاة، ذاكراً أهم صفاتهم وأعمالهم التي قاموا بها في الولاية، مبيناً السياسات التي

انتهجوها في إدارة الولاية وانطباعات الأهالي عنهم. من الولاة الذين تحدث عنهم الكاتب الوالي جميل باشا الذي يبدو في مذكرات الكاتب والياً شجاعاً صارماً، لا يفرق بين الأشراف وعوام الناس، استطاع تحقيق الأمن والاستقرار في الولاية، كما وضع حداً لتدخل القناصل في شؤون الولاية، وقام بتوسيع مدينة حلب بإنشاء الحي المعروف حتى يومنا هذا بحيّ الجميليّة نسبة لهذا الوالي، لكن هذا الوالي كان يُدير الولاية بطريقة كيفيّة بعيدة عن القانون، مما جعله عرضةً لشكاوي الأهالي، الأمر الذي أدى لعزله.

أما حسن باشا فيبدو والياً متديناً ونزيهاً، لا يأخذ الرشوة، يمضي جلّ وقته في قراءة القرآن الكريم، ومثنوي جلال الدين الرومي، يُحب السلطان عبد الحميد الثاني كثيراً، بيد أنه ضعيف إلى درجة أنه لا يستطيع عزل الموظفين الفاسدين في الولاية، كما أنه يخاف من الأجانب الذين يعيشون في المدينة، وينجز أعمالهم بسرعة.أما عارف باشا فيبدو في مذكّرات علي كمال والياً فاسداً ضعيفاً، ليس لديه خبرة في إدارة أمور الولاية، فقد عَمَّت الفوضى الولاية في فترة ولايته، ولم يستطع توفير الأمن والاستقرار في الولاية، الأمر الذي جعله عرضة لشكاوى الأهالي، وفي مقدمتهم عبد الرحمن الكواكبيّ.

2.1.2- سلبيات وايجابيات الدولة العثمانية

يذكرُ علي كمال أهم السّلبيات للدولة العثمانية في ولاية حلبَ، يرى الكاتب الذي عمل مفتشاً وجابياً للضرائب في الولاية أن الرشوة والفساد من أهمّ السّلبيات في الولاية، فقد كانت الرشوة شائعةً إلى درجة أن النّاس لم يعودوا يتصورون موظفاً لا يأخذ رشوة، فحتى المتدينين من الموظفين كانوا مرتشين. على الرغم من تحريم الدين والقانون الرشوة إلا أنها بقيت منتشرة في الولاية لانتشار الفساد. وبسبب هذا الفساد كانت الدولة تخسر الكثير من الأموال، فالسّكان كانوا يتهربون من دفع الضرائب للدولة عن طريق إرشاء الموظفين، أما ما كان يُجمع من أموال الضرائب فيُسرق قسم منه من قبل الموظفين الفاسدين، وكان يتم ذلك بشكل علنيّ دون خوف أو وجل، لكن الكاتب يعود ويقول في مكان آخر من مذكّراته أن الموظفين على الرغم من ذلك كانت مخافة الله ومخافة السلطان تسكن قُلوبهم، فلا يتمادون في أخذ الرشوة والفساد كثيراً.

ويورد الكاتب في مذكّراته بعض الحكايات المتعلقة بالفساد المنتشر في الولاية، منها ما جرى أمامه عينه، ومنها الآخر ما سمعه من الناس. فمن حوادث الفساد التي كان شاهداً عليها حادثة سرقة ضرائب الأغنام في قضاء "الباب"، حيث أرسل للتحقيق في هذه القضية، فقد كانت بعض القبائل البدوية تحط رحالها في هذا القضاء، الأمر الذي يوجب عليها دفع ضريبة للدولة، لكن القائم مقام ومدير المال وأمين الصندوق في قضاء الباب اتفقوا على سرقة قسم كبير من الضرائب، وذلك من خلال إعطاء

إيصالات للبدو بالمبالغ التي دفعوها، وتسجيل واحد بالمئة من تلك المبالغ في دفتر الإيصال.

ومن الأمور التي أشار إليها الكاتب غياب تطبيق القانون على المتنفذين. ومن حكايات تسلط الأقوياء على البسطاء التي يروي الكاتب حكايات المتنفذ حسن بيك زاده الذي كان يتهرب من دفع الضريبة، إضافة إلى تصرفه وكأنه هو الحاكم في الولاية. ومن هذه الحكايات حكاية شاب مسيحيّ مر راكباً على عربة يجرها بغل بالقرب من أحد بساتين المتنفذ حسن، فقطع غصن من أغصان شجرة دراق ليستعمله كرباجاً، وفي تلك الأثناء رآه البستاني، فأخذه إلى المتنفذ حسن الذي بدأ بحساب قيمة الثمار التي كان سينتجها هذا الغصن في السنوات القادمة، فنتج عن هذا الحساب مبلغ كبير من المال يساوي ثمن البغل والعربة فأخذهما وخلّى سبيل صاحبهما.

ويذكر الكاتب حكاية أخرى من حكايات هذا المتنفذ سمعها من الناس، ولا يعرف مدى صِحَّتها، تقول الحكاية أن حسن بيك كان عنده بيت كبير بمحاذاة حي بحسيتا، وأراد أن يوسع هذا البيت قليلاً، وكان بجانب البيت بيتٌ صغيرٌ ليهودي فقير، فقرر حسن بيك أخذ هذا البيت ليوسع بيته، لكنه لم يرد دفع المال مقابل ذلك، فوجد حيلةً استطاع من خلالها الاستيلاء على البيت، حيث طلب من جاره اليهودي الفقير الاعتناء بدجاجاته لأنه سيذهب إلى منزله الصيفيّ، لم يستطع اليهودي رد طلب حسن بيك خوفاً منه، ولأنه فقير لم يكن يستطيع إطعام الدجاجات، في نهاية المطاف اضطر إلى بيعها، وبعد سنوات طلب حسن بيك من

اليهودي الدجاجات قائلاً (فين جيجات فين بيضات) (أين الدجاجات وأين البيضات)، ولكن اليهودي كان قد أضاع الدجاجات، فبدأ حسن بيك بحساب ثمن الدجاجات وثمن الفراخ التي كانت ستفقس من البيض، فنتج عن هذا الحساب أن اليهودي أصبح مديناً لحسن بيك بمبلغٍ كبيرٍ من المال يعادل ثمن منزله الصغير، فاستولى على هذا المنزل. 9

وعلى الرغم من الفساد المستشري في الولاية إلا أن الدولة كانت توليها اهتمام كبيراً، لأهميتها بالنسبة للدولة العثمانية، يتحدث الكاتب في مذكّراته عن هذا الاهتمام ذاكراً أهم المنشآت التي بُنيت في الولاية في ذلك الوقت، ومن أهمها المكتب الاعدادي (ثانوية المأمون حالياً) الذي لم يكن له مثيل حتى في إسطنبول، فقد جُلب أثاثه خصيصاً من باريس، بالإضافة إلى مزرعةٍ تجريبيةٍ تم انشاؤها بمساعٍ من مدير الزراعة واهان سورينيان.

2.1.3- العلاقة بين الشعب والدولة العثمانية

في ما يتعلق بعلاقة الشعب مع الدولة العثمانيّة، لاحظ الكاتب أن السكان كانوا يحبون السّلطان عبد الحميد الثّاني، والدولة العثمانيّة، ويظهرون هذا الحب، ويحاولون أن يُطبقوا أوامر السلطان قدر المُستطاع، وعندما كانوا يتعرضون للظّلم كانوا يفضلون مراجعة السّلطان على اللجوء إلى السّلاح أو الثّورة.

كما كان أشرف القوم من الحلبيين يتهافتون للحصول على وظيفة في الحكومة المحلية في حلب، لأنهم بحصولهم على وظيفة

يستطيعون تسيير أمورهم، وأعمالهم داخل الولاية بيسر وسهولة، أما الذين لا يحصلون على وظيفة في الدولة فيعانون من صعوبة تسيير أعمالهم، فالبعد عن الحكومة أشبه بالموت بالنسبة لأشراف الحلبيين. فَهَمُّ معظمهم هو الاستفادة من الفساد المتفشي في الدولة للحصول على الثروة والمال. و(كان الأشراف يتطلعون للحصول على نيشان أو ثناء من السّلطان، فاذا حصل الواحد منهم على ثناء أو نيشان من السلطان كان يُجن من الفرح).**10**

2.1.4- القنصليات

إن الموقع الاستراتيجي لحلب جعلها مركزاً لقنصليات الدول المتقدمة في ذلك الوقت. إنّ كثرة القنصليات في حلب أثارت انتباه الكاتب واندهاشه، وعلى حد تعبيره (حتى البرتغال كان لها قنصلية في حلب). أما العاملين في هذا القنصليات فقد كانوا على قسمين قسم منهم قدم من البلدان الأجنبية، كما هو الحال في قنصليات إنكلترة وفرنسا وروسيا وإيطاليا. أما القسم الثاني فكان من التجار الأجانب الساكنين في حلب من غير المسلمين منذ مئات السنين، وكانوا يتهافتون للحصول على وظيفة في هذه القنصليات للاستفادة من الامتيازات الممنوحة للعاملين فيها، وأهمها الإعفاء من الضرائب.

لقد كان للقنصليات دور كبير في الحياتين السياسية والاجتماعية، فقد كان القناصل يتدخلون في شؤون الدولة مستفيدين من الامتيازات الممنوحة لهم، وفي هذا الصدد يقول الكاتب(إن القناصل في هذه الولاية

اعتادوا، ومنذ زمن بعيد، على التدخل في كل شيء مستفيدين من العهود القديمة)11، كما كانوا يقومون بنشاطات اجتماعية كإقامة الحفلات والمسامرات بشكل دائم في قنصلياتهم، كتلك التي تقام في أوروبة. فقد كان القنصلان البريطاني والروسي يقيمان في يومين مختلفين مرة كل أسبوع حفلةً ، يدعوان إليها أكابر القوم في حلب، أما قنصل النمسا اليهودي فكان نادراً ما يدعوا الناس للحفلات، ولكنه حفلاته كانت مميزة.

2.2. الحياة الاجتماعية

2.2.1- البنية السكانية

أولى الكاتبُ أهميةً كبيرةً للتركيبة السّكانية لمدينة حلب ذاكراً أهم الطّوائف التي كانت تسكن هناك وأشهر العوائل في المدينة. يذكر الكاتب أهم العوائل الحلبيّة الُمسلمة من مثل الجابري وكيخيا والمدرّس والشريف والسباعي، ويتحدث عن وضع كل عائلة من هذه العوائل، فيذكر أن عائلة الجابري هي الأكثر عدداً، وكان زعيم هذه العائلة "حجي أفندي" والد نافع أفندي الجابري الذي كان يبلغ الثمانين من عمره ، لكنه كان قوي البنية، ففي الوقت الذي كان يزوج فيه أحفاده كان عنده ولد في المهد. أما نافع أفندي الجابري الذي انتخب عضواً في مجلس المبعوثان كان ذكياً داعياً من دعاة الحرية ،محارباً للاستبداد.

أما عائلة كيخيا التي تتركز معظم أملاكها في منطقة حارم، فقد كان رئيسها أحمد أفندي الذي كان يملك العديد من الخانات بجوار القلعة مليئة

بالسجاد والتحف القديمة، بالإضافة لقصره الكبير، أحمد أفندي كان يعرف بأخلاقه الحميدة وتدينه، فقد كان عضواً مستقيماً نزيهاً في مجلس الولاية لا يعرف التملق، وكان لا يهاب الاصطدام مع الولاة في سبيل الحق، إلا أنه كان يُربي أولاده وفقاً للأصول القديمة ولا يُحب التّجديد.

أما عائلة المدرّس فقد كانت أغنى العوائل في المدينة، ورئيس هذه العائلة زكي بيك الذي كان عضواً في مجلس الإدارة، كان غنياً جداً وماكراً ومتملقاً. على الرغم من أنه كان كاتباً صغيراً في بداية حياته إلا أنه استطاع بدهائه أن يصبح أحد أعضاء مجلس الولاية. كان يحب نفسه كثيراً ففي الفترة التي انتشرت الكوليرا في حلب انزوى في مزرعة له، ولم يعد يخالط الناس، كما كان يرتدي معطفه في شهر آب خشية البرد.

ويذكر الكاتب من العوائل المسيحيّة الثّريّة العوائل التالية: مركوبولي، صولا، حمصي، خياط، غزالي وأنطاكي.كانت عندهم قصور وممتكات عظيمة، فممتلكات هذه العوائل تتركز في مدينة حلب، فقد لاحظ الكاتب أنّ أكثر الأملاك في المدينة كانت في عهدة المسيحيين. وكان قسم من أبناءِ هذه العوائل يعمل في القنصليات الأجنبية كقنصل فخري أو كمترجم.

ويرى الكاتب أن لليهود مكانة خاصة في حلب على الرغم من أن معظمهم من الفقراء، فقد لاحظ الكاتب أنهم يعيشون في حي (بحسيتا) الخاص بهم، وأشار إلى دورهم الكبير في الحياة

الاقتصادية للولاية، فيذكر من هؤلاء منسي التاجر اليهودي الذكيّ الذي كان يُقرض صندوق مال الولاية عندما يقع في ضائقة، مع ذلك كان يظهر تواضعاً كبيراً، فعندما يحضر إلى غرفة الوالي كان يجلس في آخر المجلس لاوياً عنقه، ناظراً إلى الأرض وكأنه أضعفُ مخلوقٍ على وجه الأرض.12

لعل إقامة كل طائفة من طوائف المدينة في حي لا يسكنه إلا أفراد هذه الطائفة هو أغرب ما لاحظه الكاتب في مدينة حلب، يقول " إنه أمر عجيب في هذه البلاد الطوائف الثلاثة المسلمون والمسيحيون واليهود يعيشون بشكل منفصل بعضهم عن بعضهم الآخر ما أمكن ذلك، ولا يوجد علاقات وثيقة بينهم، فالتّعصب في هذه الطوائف يفصل بعضهم عن بعض فصلاً كاملاً . لكن هذا الأمر يقتصرُ على الحلبيين أما غير الحلبيين من المسلمين وغير المسلمين فلا يصلون لهذه المرتبة من التّعصب فهم يختلطون ببعضهم أكثر من أهل المدينة."13

تحدث الكاتب في مذكراته بشكل مفصل عن الموظفين والمنفيين الأتراك الذي كانوا يشكلون مجموعة كبيرة في حلب، حيث يعمل معظم هؤلاء كموظفين إلا أنهم كانوا يقضون جلّ وقتهم في اللهو، كان بعضهم يقوم بفعاليات سياسية كنيقولا هاجر بيك المنتمي إلى عائلة مسيحية غنية، نفي من إسطنبول لأنّه كان يعمل في (سلاح شور) السّلطان مراد، كان نيقولا قد أسّس محفلاً ماسونياً في

حلب اسمه (نجمة سورية)، وكان على صلة بكبار الماسونيين في أوروبة، نذر ماله وحياته للماسونيّة، كان يحاول ما بوسعه لضم أفرادٍ جدد إلى محفله.14

2.2.2- وضع المرأة

أما فيما يتعلق بوضع النساء في الولاية فيذكر الكاتب (أنّه حتى النساء غير المسلمات في هذه البلاد يرتدين الشّراشف (الملاءات) أثناء التجول، ويبدون وكأنّهنّ يهربن من الرجال في الشّوارع)15

2.3. الحياة الثقافية والعلمية

2.3.1- التعليم

تحدث الكاتب في مذكّراته عن الحياة الثقافية والعلمية في الولاية في ذلك الوقت، فتحدث عن التَّعليم التقليديّ حيث كان الطلاب يدرسون على أيدي العلماء الكبار في المدينة، من مثل الشيخ بشير الغزيّ الذي كان له فضل كبير على الكاتب في مجال تعلم اللغة العربية والعلوم الدينيّة، حيث كان يلتحق بحلقة الشيخ الغزيّ في حجرته الصغيرة، لم ينس الكاتب فضل هذا العالم عليه، فقد وجه شكراً له في مقدمة أحد كتبه.16

إلى الجانب التعليم التقليدي كان هناك التعليم الحديث الـمُتمثِّل في المكتب الإعدادي الذي عمل فيه علي كمال مدرساً للّغة التركيّة. لقد لاحظ الكاتب أن معظم الطلاب في المكتب

الإعداديّ كانوا أذكياء ومجتهدين، فقد تعلموا اللغة التركيّة خلال سنوات قليلة بشكل ممتاز، وقد أصبح معظمهم في مواقع ممتازة، الأمر الذي جعل الكاتب يشعر بالفخر بهؤلاء الطلاب الّذين كانوا يظهرون له الاحترام والتقدير دائماً.

2.3.2- الشعراء والمفكرون

علي كمال شاعر بدأ كتابة الشعر في بداية شبابه، وهو يحب الشعر العربي كثيراً، ويستشهد به قي مقالاته، فقلما نجد مقالة من مقالات الكاتب تخلو من بيت شعرٍ عربي أو حكمة أو مثل، وكثيراً ما كان يستشهد بأقوال المتنبي والمعري في مقالاته وكتبه. لهذا ليس من الغريب أن يمنح الشعر العربي حيزاً في مذكراته، فقد لاحظ الكاتب سيادة الشعر في الأدب العربي، وتقدمه على بقية الاجناس الأخرى في تلك الفترة، كما لاحظ كثرة الشعراء الأمر الذي دفعه للاعتقاد بأن نظم الشعر عند العرب سهل. ويرى الكاتب أن 80 % من المفكرين المسيحيين في حلب وبيروت ينظمون الشعر، إلا أن معظم أشعارهم عبارة عن ألعاب لفظية على حد تعبيره . ويرى الكاتب أن أفضل الشعراء العرب في تلك الفترة هم الشعراء الذين نشأوا في بيروت ومصر، ويذكر منهم الشّيخ ناصيف اليازجي وابنه إبراهيم اليازجي، ويرى أن أشعارهما تصل إلى مرتبة الكمال، أما شعراء حلب من أمثال قسطاكي الحمصي وجبرائيل الدلال فلا يصلون إلى المرتبة التي وصل إليها شعراء لبنان ومصر.

ويذكر الكاتب من المفكرين الحلبيين الذين التقى بهم في حلب عبد الرحمن الكواكبي الذي كانت عداوة والي حلب عارف باشا تجمع

بينهما. فقد كانا يجتمعان لكتابة شكوى للباب العالي ضدّ الوالي عارف باشا. لقد أعجبَ الكاتبُ بذكاء الكواكبي وبراعته. ويورد الكاتب في مذكّراته برقيّة شكوى بعث بها الكواكبي إلى الباب العالي يُبيِّن فيها وضع المدينة في زمن الوالي عارف باشا، يذكر فيها الكواكبي أن الولاية وصلت إلى درجة لا يمكن تحملها من انعدام الأمن بسبب سوء إدارة الوالي.17

2.3.3- الرقابة

تحدث الكاتب عن الرقابة على الأدباء في الولاية، فيتحدث عن سجن ونفي الشاعر الممتاز على حد تعبيره جبرائيل الدّلال بسبب قصيدة (العرش والهيكل) التي نظمها في أيام شبابه، كما ذكر الكاتب في مقالة له أنّ الولي حسن باشا كلفه بتدقيق أشعار شاعر أرمنيّ ألقي القبض عليه، إلا أنّ علي كمال، وبعد تدقيق الشعر تبين له أنه لايوجد فيه أي شيءٍ جديّ يستوجب التّوقيف، عندها أمر الوالي بإطلاق سراح الشاعر.18

2.4. اللهجة المحلية

تفاجأ علي كمال الذي كان قد درس اللغة العربية الفصحى في إسطنبول، بالفرق الشاسع بين العربية الفصحى واللهجات الدارجة في المدن العربية التي زارها. وبحسب رأي الكاتب أن من يتعلم اللغة العربيّة من المعاجم وكتب النحو والصرف لن يستطيع أن يتكلمها في بلاد العرب، ولن يتمكن من توصيل مراده.19

لقد لاحظ الكاتب أن الناس في ولاية حلب يخلطون في كلامهم بين اللغتين العربية والتركية، ويذكر حادثة طريفة جرت له عندما كان يجبي الضرائب من الفلاحين في قرى أنطاكية، فعندما سأل الكاتب الفلاح عن المحصول أجابه الفلاح بـ ("قلدروا) حاول الكاتب تحليل الكلمة بناء على ماتعلمه من معلومات نحويّة وصرفيّة في المدرسة، فظن الكلمة من جذر (قول)، لكن تَبيَّن في نهاية الأمر أنّ الفلاح أدخل على المصدر التركيّ (قلدرمق) الذي يعني (الحمل أو الرفع) ملحقاً عربياً، فيكون معنى الكلمة (حملوها). ويذكر في هذا الصدد أنّ أهالي حلب يكثرون من المزج بين اللغتين التركية والعربية في أثناء حديثهم، فيقولون مثلاً (ما بجاليش) و "ما بقارش(أي)لا أعمل(ولا أتدخل) مدخلين حرف النّفي على الفعل التركيّ.**20**

العمران

تحدث الكاتب في مذكراته عن الأهمية الاستراتيجية لموقع ولاية حلب، وما جلبه هذا الموقع من ثراءٍ وتقدمٍ للمدينة. لقد أصبحت مركزاً تجارياً وممراً يربط الشرق بالغرب، فقد عَدَّ الكاتب مدينةَ حلب أفضل مدينة في سورية، فهي متفوقة من ناحيتي العمران والثروة على كل من دمشق وبيروت. إلا أن الكاتب رأى عيباً في مدينة حلب، إلا وهو عدم توسيع هذه المدينة، فقد بقيت محصورةً داخل أسوارها فترة طويلة من الزمن، إلى أن جاء الوالي جميل باشا الذي

شقّ شارعاً جديداً في الجهة الغربية من المدينة، وأسس حيّ الجميليّة، وبني فيها بيوتاً وقصوراً على الطرز الأوروبيّ، ويرى الكاتب أنّ الإقامة في حي الجميلة أفضل ألف مرة من الإقامة في حارات المدينة القديمة المغلقة والضّيقة التي لم يعجبه على ما يبدو طرز بنائها، فقد كان طرزُ بناء البيوت في حلب القديمة مدعاةً لاستغراب الكاتب، حيث يقول في هذا الصدد (إنّ النمط المعماري لبيوت المدينة عجيب، فهي مبنيّة بصورة لا تَحفظ سكانها لا من البرد والمطر شتاءً ولا من الحرارة صيفاً، لأنّ كل واحدٍ منها يحوي في وسطه فسحة (حوشاً) مكشوفة من الأعلى لا لزوم لها)12**حلب في روايات علي كمال**

كتب علي كمال روايتين تدور أحداثهما في ولاية حلب، هما(الأختان)، و(مغامرة في الصحراء)، سنقف عندهما لاتفصيل. تعتمد هاتان الروايتان القصيرتان على مشاهدات الكاتب في مدينة حلب، ففي مقدمة كتابه (صفحة من الشَّباب) يقول الكاتب أنَّ هاتين الحكايتين حقيقيتان، وأنَّ أحداثهما قد جرت أمام عينيه، فتأثر كثيراً لدرجة أنه أحس نفسه مجبراً على كتابتهما.**22**

2.5. الأختان

انتهى الكاتب من كتابة هذه الرواية في حزيران عام **1894**م في مدينة حلب، ونشر جزء منها في جريدة (مكتب)في العام نفسه ، وطبعت بشكل كامل لأول مرة عام **1898**م. تدرو أحداث الرواية في مدينة حلب عام **1890**م بين مجموعة من الموظفين الأتراك،

ومجموعة من البغايا قدمن من دمشق إلى حلب، إضافة إلى فتاتين غير مسلمتين تعيشان في حلب، فالرواية تعطي صورة للحياة الإجتماعية في حلب في أواخر القرن التاسع عشر من وجهة نظر الكاتب.

3.1.1- أحداث الرواية

تبدأ أحداث الرواية عندما يصادف الكاتب بطل الرواية في أثناء تجوله في أوسع شارع في مدينة حلب، فتاتين شابتين هما (ويوا) و(سلفيا)، وهما تتمشيان هناك، وبدا للكاتب أنهما تعيشان حياة كريمة وسعيدة، ولا يعوزهما شيء. وبعد فترة وجيزة من مرور هاتين الفتاتين غير المسلمتين تمر في الشارع نفسه قافلة قادمة من دمشق، يلفت انتباه الكاتب في هذه القافلة فتاتان شابتان أرهقهما السفر، بنظراتهما وضحكاتهما، هما (شريفة) و(زنوب)، بدا للكاتب أنهما تعيشان حياة صعبة وغير مستقيمة، تعقبهما بنظراته لفترة ثم انصرف بعدها إلى بيته، لكنه ظل يفكر في المشهدين المتباينين اللذين رآهما في شارع المدينة.

بعد فترة من الزمن يُدعى الكاتب إلى حفلة باليه أقيمت في أحد بيتوت التجار الأوروبيين المقيمين في حلب، يلتقي فيها بالفتاتين اللتين شاهدهما، وهما تتنزهان في الشارع، ويدور حديث بينه وبينهما، لكن الفتاة الكبيرة ("ويوا) تجذب انتباهه أكثر من أختها الصغيرة، فيتحدث ويرقص معها حتى ساعات الفجر الأولى.

لقد ذَكَّرَت هاتان الفتاتان الكاتبَ بالفتاتين الأخرتين اللتين صادفهما في المكان والزمان نفسه، فقرر السؤال عنهما، فذهب إلى صديق له يقضي جلّ وقته في اللهو والسكر، وسأله عنهما فوجد عنده معلومات كافيه عنهما، كما تطوع صديقه بإيصاله إلى المكان الذي تسكنان فيه، وذهب مع صديقه بعد تردد إلى بيتهما الذي يقع في أحياء المدينة القديمة، تعرف عليهما وعلى عمتهما التي كانت تسكن معهما، حيث تبين للكاتب أن رُقية عمة الفتاتين تقوم بتشغيل ابنتي أخيها زنوب وشريفة في الدعارة واللهو، وأن صديقه يحب شريفة، وأن شريفة أكثر شهرة من أختها زنوب، فهي فتاة لعوب تقوم بكل ما يمكنها القيام به للايقاع بالشباب في فخها، على العكس منها أختها زنوب التي لا تحب هذه الأعمال لكنها مرغمة على فعلها. الكاتب الذي كان يفضل حضور الحفلات التي يقيمها الأجانب في حلب ويختلف إليها، يعود ويلتقي بويوا وسيلفا في إحدى الحفلات المقامة في إحدى القنصليات الأجنبية، تبين له خلال الحفلة أن ويوا قد خطبت وستتزوج قريباً، يتأثر من سماع هذا الخبر.

تحبل شريفة محبوبة صديق الكاتب من أحد الأغاوات، فتخطط عمتها رُقية لإسقاط الجنين، فتأتي بداية يهودية، تبدأ الدَّاية بالعمل على إسقاط الجنين، بعد ثلاثة أيام من المحاولات الفاشلة، تنجح الدَّاية بإسقاط الجنين، لكن شريفة تصاب بنزيف يؤدي إلى وفاتها. يشترك الكاتب وصديقه الذي حزن حزناً شديداً لفقد

محبوبته في الجنازة التي لم يشهدها سوى عددٍ قليلٍ جداً من الناس، وبعد الانتهاء من مراسم الدَّفن في المقبرة التي تقع خارج أسوار المدينة القديمة، يمر الكاتب من أمام إحدى الكنائس فيرى النَّاس محتفلين بعرس (ويوا) فيحزن كثيراً.

صديق الكاتب وبعد وفاة شريفه يصاب بالمرض لأنه يتناول الكحول بكميات كبيرة، في يوم من الأيام يذهب الكاتب لزيارته، فيجد عنده مجموعة من الموظفين الأتراك يلعبون القمار، يحاول مغادرة البيت لكنهم يصرون على بقائه لتناول الطعام معهم. وبعد ساعات من اللعب تحدث مُشكلة يقرر اللعبون بعدها إنهاء اللعبة، ويبدؤون بتناول المشروبات والطعام، وبعد أن يأخذ السكر منهم كل مأخذ يرسلون لجلب عازف عودٍ يهودي ليعزف لهم، لكنهم لا يعضهم لا يكتفي بذلك فيقرر الذهاب إلى إحدى أماكن اللهو بحلب لإكمال سهرتهم هناك. صديق الكاتب بعد فترة قصيرة يصاب بالوهم الأمر الذي يؤدي به إلى الانتحار.

في يوم من الأيام، وفي أثناء مرور الكاتب من أمام قلعة حلب يصادف رقية، فتطلب منه أن يعطيها عنوان بيته، ثم تزوره في اليوم الثاني، وتدعوه لزيارتها، يلبي الكاتب الدعوة، فيذهب في اليوم التالي إلى بيت رقية، فيرى أن زنوب قد أصيبت بمرض وبدت ضعيفة جداً، قُدِّمت للكاتب المشروبات، وبعدها جاء مجموعة من العازفين، بدأت زنوب بالعزف على العود مع العازفين، لكن أحد العازفين بدأ بغناء أغنية تدور كلماتها حول شريفة، الأمر الذي جعل زنوب تتأثر كثيراً وتنفجر باكيةً، فخرجت من

الغرف حاملة كأس البيرة في يدها لتجلس في باحة البيت، لكن بعد فترة سمع الكاتب والذين يجلسون معه في الغرفة أنينها فخرجوا ليروا زنوب وقد كسرت الكأس وجرحت يدها محاولة الانتحار، وبعد أن ساعد الكاتب رقية على ربط الجرح الذي أحدثته زنوب في يدها، أعطى رقية بعض المال وعاد إلى بيته ليجد على مكتبه دعوة موجه له من والد ويوا وسلفيا يدعوه فيها لحضور حفل زفاف ابنته الصغرى سلفيا.

3.1.1- حلب في الرواية

3.1.1.1- المجتمع الحلبي

في هذه الرواية القصيرة التي تدور جميع أحداثها في مدينة حلب يقدم الكاتب لنا ثلاثة طبقات اجتماعية تعيش في المدينة، المجموعة الأولى تتمثل بالموظفين والتجار الأجانب الذين يعشون في حلب، المجموعة الثانية هي جزء من السكان المحليين الجاهلين الذين يقومون بأعمال لا أخلاقية، وأما المجتمع الثالث فهو مجموعة الموظفين والمنفيين الأتراك الغارقين في اللهو والسكر. الكاتب يقارن بشكل دائم بين المجموعة الأولى والثانية، فهو يقارن بين زنوب وشريفة من جهة، وويوا وسلفيا من جهة أخرى، فشريفة وأختها تعيشان في وسط يختلف تماماً عن الوسط الذي تعيش فيه ويوا وأختها اجتماعياً ومكانياً وثقافياً.

3.1.1.1.1- السكان المحليون

شريفة وأختها تعيشان حياة صعبة وقذرة، فقد توفي والداهما، وهما في سن صغيرة، ونشأتا في كنف عمتهما رقية التي

كانت تزاول أعمالاً لا أخلاقية في دمشق، لكنها بعد أن شاخت بدأت بتشغيل الفتاتين الصغيرتين. رقية همها الأكبر جمع المال بأي وسيلة، لا يهمها صحة أو سمعة ابنتي أخيها، كما أنَّها تتظاهر بالتَّدين، فهي ترتدي الحجاب، وتحمل سبحة في يدها، كما أنها تؤدي الصلاة أحياناً. من الملاحظ أن هذه الشخصيات جاهلة لم تنل أي حظ من العلم أو الثقافة.على هامش هذه الشخصيات الثلاثة توجد بعض الشخصيات الثانوية التي تنتمي للمجتمع المحلي. من هذه الشخصيات شخصيات يهودية، من مثل الداية وعازف العود. من الملاحظ أن الشخصية اليهودية في الرواية سلبية أيضا، وتتصف بصفات سيئة، وتقوم بأعمال بسيطة أو غير قانونية.

3.1.1.1.2- الأجانب

أما الفتاتان الأجنبيتان فهما شخصيتان إيجابيتان، على العكس من شريفة وزنوب ويوا وأختها تعيشان حياة مرفهة وسعيدة، فهما تحبان الموسيقى، وتعزفان على البيانو، وتحضران الحفلات التي تقام في القنصليات، أو التي يقيمها التجار الأجانب في حلب، تحبان الأدب والقراءة كثيراً، وهما مثقفتان تتحدثان في مواضيع تتعلق بالأدب، تتنزهان في شوارع حلب، وتقومان بالتجول في الريف على الخيل، باختصار هما لا تواجهان أي مصاعب في الحياة.

3.1.1.1.3- الموظفون الأتراك

لقد قدم الكاتب الموظفين والمنفيين في حلب بصورة سلبية في الرواية، فهولاء يتمتمون بصفات سيئة. فهم منغمسون في اللهو، يقضون جل وقتهم في أماكن التسلية ولعب القمار، وبسبب تناولهم للكحول، ولعبهم للقمار يعانون من مشاكل إقتصادية، فرواتبهم لا تكفيهم، وفي بعض الأحيان يأخذون ديوناً من الناس لكنهم لا يستطيعون إيفاءها بل ويتذمرون من مطالبة أصحاب الديون لهم.

3.1.1.2- المكان

الكاتب يقدم لنا في الرواية مكانيين مختلفين تماماً في مدينة واحدة،كل مكان يختلف تماماً عن المكان الأخرى، المكان الأول هو المكان الذي تعيش فيه رقية وابنتي أخيها، يتمثل في الحارات الضيقة والمتعرجة داخل أسوار المدينة القديمة، هذه الحارات غير نظيفة، شوارعها وأرصفتها مليئة بحفر الصرف الصحي، وأكوام الحجارة، وغارقة في الظلام الدامس، بيوتها صغيرة ومحاطة بجدران ليس لها نوافذ أو شرفات، فالبيت الذي تسكنه رقية أشبه ما يكون بالسرداب فيه حوش صغير جداً. أما المكان الذي تعيش فيه ويوا وأختها فيتمثل بالأحياء التي تقع خارج السور، البيوت فيها واسعة ولها شرفات، كما أنها محاطة بالأشجار، فالبناء الذي تقام في الحفلات الأسبوعية، بناء قاعاته كثيرة، وواسعة لها نوافذ وشرفات واسعة محاطة بالأشجار الكبيرة. يفهم من كلام الكاتب أن حلب كانت تعج بمراكز التسلية واللهو التي تقدم خدماتها للراغبين بها حتى ساعات متأخرة من الليل، فبالإضافة إلى أمكان التسلية والحفلات التي يقيمها الأجانب في حلب يمكن أن نضيف هذا

الحوار الذي دار بين اثنين من الموظفين الأتراك كانا يرغبان في الذهاب إلى أحد أماكن اللهو:

- الساعة تقترب من الرابعة صباحاً

-لا يزال هناك وقت، هناك وقت، أولا نذهب إلى (رقوش) إذا لم نجدها نذهب إلى (سلوم) خارقة حلب خارقة."23

3.1.1.3- الثقافات والعادات

يجد القارئ للرواية نفسه أمام مجتمعين مختلفين ثقافياً تماماً، يتجلى هذا الاختلاف في اللباس والأدوات الموسيقية والتسلية، فرقية وابنتا أخيها يرتدين غطاء الرأس والملاءة، أما ويوا وأختها فترتديان أثواباً ملونة صفراء وحمراء إضافة قبعات. من الملاحظ أن الحفلات الصغيرة التي تقام في بيت رقية يعزف فيها على العود والزيل إضافة إلى الطبلة الصغيرة، وهي آلآت شرقية. أما الحفلات التي تحضرها ويوا وأختها فيعزف فيها على الآلآت الموسيقية الغربية من مثل البيانو والقيثار المندولينا، ويغنى فيها بالفرنسية واليونانية إضافة إلى العربية. ولانسنى أن نذكر أن زنوب عازفة ممتازة على العود، أما ويوا فهي عازفة ماهرة على البيانو.

لقد تحدث الكاتب في الرواية عن بعض العادات السائدة في المدينة في ذلك الوقت. فمن ذلك حديثه عن حفلة الباليه التي أقيمت في بيوت أحد التجار الأجانب في حلب، هذه الحفلة أشبه ماتكون بالحفلات التي تقام في أوروبة وقتئذ، حيث يشترك فيها الرجال والنساء، ويرقص المدعون رقصات (والس) و(قادريل)

على نغمات البيانو، تتخلل هذه الرقصات فترات استراحة للطعام والشراب وتبادل أطراف الحديث.

ومنها أيضاً الاجتماع الذي كان يقام صيفاً ببناء إحدى القنصليات الأجنبية الفاخرة الواقعة خارج أسوار المدينة القديمة والمحاطة بالأشجار الكبيرة ، ففي هذه القنصلية يجتمع الرجال والنساء مرة كل أسبوع بعد الظهر في اجتماع أشبه ما يكون بحفلة يعزف فيها على البيانو والقيثارة، ويغنى فيها بالعربية واليونانية والفرنسية، ومعظم رواد هذه الاجتماعات من النساء.

ومن العادات التي ذكرها الكاتب جلب العازفين والمغنين إلى البيوت لخلق جوٍ من المرح وتسلية الضيوف. كذلك عادة اتباع الجنائز، فعلى الرغم من أن شريفة فتاة ليس لها أي أقرباء في المدينة إلا أن بعض الناس من الاتقياء شاركوا في حمل الجنازة، والصلاة عليها، رغم أنهم لا يعرفونها.

3.2. مغامرة في الصحراء

انتهى الكاتب من كتابة هذه الرواية في عام **1895**م في مدينة حلب، ونشرت أجزاءً في جريدة (ثروت)عام **1898**م، ثم طبعت في العام نفسه ، وتُرجمت إلى الفرنسية عام **1899**م. تدور أحداث الرواية حول فتاة إسطنبولية اسمها سحر، اضطرت للسفر مع ولدها الذي نفي إلى مدينة تدمر التي كانت تابعة لولاية حلب آنذاك، صرح

الكاتب في مقدمة الرواية أنه رأى سحر وأن أحداث الرواية حقيقة وإن كان فيها شيء من الخيال.

3.2.1- أحداث الرواية

تبدأ أحداث الرواية مع وصول سحر وزوجة أبيها صفوت إلى ميناء اسكندرون قادمتين على متن باخرة من إسطنبول للّحاق بصبحي أفندي الذي عين مديراً لمملحة تدمر. سحر فتاة في السادسة عشرة من عمرها، ولدت في إسطنبول التحقت بمكتب تعليم الفتيات في اسطنبول، تعرفت على مجموعة من الفتيات في المكتب، وأصبح عندها صديقات، مات والده سحر وهي في سن صغيرة على إثرها تزوج والدها بصفوت الفتاة الشابة التي كانت تعمل في بيتهم. سحر تحب رفيقاتها ومدينة إسطنبول كثيراً، إلا أنها تضطر لمغادرة إسطنبول بسبب تعين والدها في مدينة تدمر.

صبحي أفندي رجل في الخامسة والخمسين من العمر، مهمل لعمله، الأمر الذي أدى إلى تعيينه في تدمر بعد محاكمة دامت سنوات. صبحي أفندي يحب زوجته الشابة كثراً، لكنه لم يكن يكترث بأمر ابنته سحر وأختها الصغرى نوبر. عندما وصلت عائلة صبحي أفندي إلى ميناء إسكندرون كان من المفترض أن يكون بانتظارها رجل أرسله صبحي أفندي لاصطحابهما إلى حلب، ومنها إلى تدمر. ولما أن الرجل لم يحضر اضطرت العائلة للذهاب مع عائلة إسطنبولية قادمة إلى حلب، يعتقد أن هذه العائلة هي عائلة، حيث

بقيت عائلة صبحي أفندي في حلب عدّة أيام، أقامت خلالها في منزل العائلة الاسطنبولية في حلب، قبل أن تكمل طريقها إلى تدمر.

في البداية سحر شعرت بالملل الضيق من هذا السفر، كما أنها لم تحب طبيعة البلاد الصحراوية، ولا أثار مدينة تدمر التي كانت تظن أنها ستكون جميلة وممتعة، لأنها كانت قد قرأت مقالة حولها، فالأوروبيون يقطعون المسافات الشاسعة لرؤية هذه الأثار القديمة. سحر كانت تعيش منعزلة عن محيطها، كما كانت زوجة أبيها تكرهها، لذلك كانت تقضي جل وقتها برفقة أختها الصغرى (نوبر) بين أثار المدينة القديمة التي بدأت تحبها، لقد كانت نوبر ذات الخمس سنوات صديقة سحر الوحيدة، إلا أنها تصاب بمرض يؤدي إلى وفاتها، فتبقى سحر وحيدة في الصحراء لا يوجد ما يسليها سوى الرسائل التي كانت تتبادلها مع صديقتها خيرية.

بعد فترة من الزمن يعين في المملحة كاتب اسمه رجب أفندي، وهو شاب تركي وسيم، لقد أحبته سحر عندما سمعت عنه، حتى قبل أن تراه، وبدأت تنسج أحلام الزواج من هذا الشاب الوسيم، رجب أفندي أيضاً لم يكن يخفي رغبته في الزواج من سحر، ولكن في إحدى الليالي عندما كان رجب أفندي يسكر مع محمد رئيس الحراس في المملحة بدأ يتكلم بكلام سيئ ينم عن خساسته، فالرجل لم يكن ليكتفى بالحديث عن سحر، بل أفصح عن رغباته حول صفوت زوجة صبحي أفندي، الأمر الذي أغضب محمد،

وجعله ينهال عليه ضرباً، الأمر الذي أدى إلى اجتماع كل من في المملحة. وهكذا ظهر وجه رجب أفندي الحقيقي أمام الجميع. وبعد أيام جاءت رسالة من دمشق إلى صبحي أفندي تطلب منه أن يرسل الكاتب لأخذ زوجته التي تركها في دمشق لوحدها، حيث بدأت الإشاعات السيئة تنتشر حولها.

سحر أصيبت بخيبة أمل كبيرة بعد هذه الحادثة، فقد بلغت العشرين من عمرها ولم تتزوج، كما زادت مضايقات زوجة أبيها التي كانت تريد أن تتخلص منها، فكان تطلب من زوجها بشكل دائم أن يزوج سحر، بحجة أنها قد كبرت. وبعد فترة وجيزة يأتي مدير ناحية جديد إلى تدمر مع عائلته، ابن مدير الناحية الجديد شاب في العشرينات من عمره، لكنه لم يكن وسيماً أبداً، طلب يد سحر فوافقت على الزواج منه، بسبب الضغوط المتزايدة عليها من قبل أبيها المريض وزوجته. تم تحديد موعد الزواج لكن من حسن حظ سحر، وبسبب الظروف الصحراوية ظهرت أعراض مرض الفرنك على الشاب الذي كان يخفي إصابته بهذا المرض المعدي، فأبطل الزواج.

وبسبب إلحاح صفوت في تزوج سحر قرر صبحي أفندي أن يصطحب ابنته إلى مركز اللواء دير الزور عله يستطيع أن يزوجها لموظف من الموظفين هناك. شعر سحر بحزن شديد جداً، لأن والدها يريد التخلص منها، وتزوجها لأي شخص كان، فكتبت له

رسالة صغيرة مفادها أنه أبوها وأن من واجبها إطاعته، لكنها لا تستطيع أن تستوعب أن والدها الذي تعب في تربيتها يزوجها بهذه الطريقة لرجل لا يعرفه في مكان لا يعرفه.

رق قلب صبحي أفندي حينما قرأ الرسالة، وبكى قليلاً، لكن اصرار زوجته، وهجرها له يرغمانه على هذا الفعل، ومن حسن حظ سحر رفضت الإجازة التي تقدم بها صبحي أفندي لكي يأخذ ابنته إلى دير الزور لكونه طلب الاجازة في موسم عمل المملحة.

سحر كانت تقضي جل وقتها بين أثار مدينة تدمر القديمة أو تصعد إلى أحد التلال المحيطة بها تتأمل عالم الصحراء من حولها، وفي أحد الأيام اضطرت للعودة إلى البيت بعد خروجها منه بربع ساعة بسبب حرارة الجو، ولكنها عندما عادت إلى البيت، فوجدت باب البيت مفتوحاً، فتسللت إلى غرفتها، لكنها سمعت صوتاً في البيت، فنظرت من شق الباب، فرأت (حسن) أحد حراس المملحة يخرج من غرفة صفوت، لم تكد تصدق ما رأت، فقد أصيبت بصدمة جعلتها تبقى في غرفتها طوال اليوم، وهي تفكر فيما ستفعل، في النهاية قررت السكوت، لأن أباها لن يصدقها، وحتى لو صدقها لا فائدة من ذلك، بل على العكس إن هذا الخبر قد يسبب وفاة والدها المريض، لكنها قررت أن لا تخرج من البيت في فترة تواجد والدها في العمل.

في يوم من الأيام خرجت سحر إلى أثار المدينة، وبينما هي غارقة في تأملاتها ظهر أمامها فجأة مجموعة من البدو يتقدمهم

شاب وسيم، تفاجأ بدوره أيضاً برؤية سحر. نهضت سحر من مكانها، وغادرت المكان، لكن خيال الشاب لم يفارقها لحظة واحدة طوال تلك الليلة.

في اليوم التالي جاء مدير الناحية ليزف البشرى لصبحي أفندي، لقد طلب من الشيخ سطعان أن يطلب يد سحر لابنه نبهان الذي رأها جالسة في مدينة تدمر القديمة، وأخبره بأن الشيخ سطعان سيدفع له **200** ليرة مهراً لسحر. سحر رفضت هذا الأمر رفضاً مطلقاً، فكيف لفتاة نشأت في إسطنبول أن تعيش مع البدو في وسط الصحراء. لكن والدها أعطاها مهلة للتفكير حتى صباح اليوم التالي، ظلت سحر تفكر طوال اليوم بذلك الشاب البدوي، وفكرت أيضاً بوضعها في البيت الذي حولته زوجت أبيها إلى جحيم لا يطاق، وفي حال زميلاتها في الدراسة اللاتي تزوجن في إسطنبول بـأزواج في منتهى السوء والانحطاط. فقررت القبول بالعيش مع هذا الشاب البدوي الشهم في وسط الصحراء، وهجرت عالم المدينة إلى الأبد.

بعد رحيل سحر مع زوجها البدوي عن تدمر تعرض والدها لصدمة كبيرة أدت لوفاته حينما رأى حارس المملحة في بيته مع زوجته التي هربت مع حارس المملحة حسن إلى دمشق إثر وفاة زوجها.

3.2.2– المكان

تدور أحداث الرواية في إسطنبول، وفي تدمر التابعة لولاية حلب، وفي الطريق بين هذين المكانين. المكان الأول إسطنبول المكان الذي ولدت

وعاشت فيه سحر مع عائلتها، لهذا المكان مكانة خاصة في نفس سحر، فإسطنبول هي الوطن الذي يحوي ذكريات الطفولة إلى جانب جماله الطبيعي، غادرت سحر هذا المكان الجميل مكرهة للحاق بأبيها المنفي في وسط الصحراء. لكن هذا المكان ما يلبث أن يفقد بريقه في عيني سحر بسبب ما كان يصلها من أخبار منه من جهة، وبسبب الصحراء التي بدأت تحبها، وتعتاد على الحياة فيها. إسطنبول على الرغم من جمالها الطبيعي باتت موطن الفاسدين والمنحطين من الرجال بالنسبة لسحر.

أما المكان الثاني فهو الصحراء التي يقدم لنا الكاتب لها تصويراً دقيقاً نقتطف منه هذه المقطع الذي يصور منطقة تدمر.

(واد لانهاية له، يجري بهدوء في وسطه جدول ماء، اخضرت الأرض على طرفيه، حتى أن بعض الزهور الصفراء بدت مبعثرة على طرفي الجدول. تسير قطعان الجمال في نهاية هذه الوادي أفواجاً. إذا نُظر إلى الخيام والنساء التي فوقها، والخيل والرجال الذين يحيطون بها تبدو كبلد كبير يسير...)**24**

لعل أكثر شيء استرعى انتباه سحر ليالي الصيف المقمرة الساكنة التي لايعكر صفوها شيء، حيث كانت تصعد إلى هضبة بالقرب من آثار تدمر لتتأمل هذا منظر السماء والنجوم الجميل الذي قالت عنه في رسالة كتبتها إلى صديقتها في إسطنبول أنه أجمل ما في بلاد العرب. لقد بدت الصحراء في هذه الرواية مكاناً يسكنه الطيبون والشرفاء، ليس فيه مكان للفاسدين والمنحطين، إلى جانب

ذلك بدت الصحراء لغزاً وسراً يريد الكاتب أن يكتشف أشياء جديدة عنه.

3.2.3- البدو والبادية

من الطبيعي أن يكون للبدو والبادية مكان مركزي في رواية تدور أحداثها في بادية ولاية حلب، لقد رسم الكاتب في هذه الرواية صورة إيجابية للبدو ولحياة الصحراء، فالبدو في الرواية يتميزون بصفات جيدة، وأخلاق حميدة. فهم نجباء وأعفاء وشرفاء لايفعلون الأفعال القبيحة، ينطقون بالصدق، علاوة على ذلك وجوهم، وأجسامهم جميلة. فهذه الصفات الحميدة جعلت سحر تحبهم، وتميل إليهم، وتتحدث عنهم في الرسائل التي كانت تبعث بها إلى صديقتها المقيمة في إسطنبول، ففي إحدى تلك الرسائل تتحدث لصديقاتها عن جمال فتاة بدوية رأتها في تدمر. وفي رسالة أخرى تحدثت عن شهامة البدو، واحترامهم للآخرين. وفي مكان آخر من الرواية يتحدث الكاتب عن وسامة الشاب البدوي الذي رأته سحر أثناء وجودها في مدينة تدمر القديمة، فصورة هذا الشاب الوسيم الضحوك ذو العينين السوداوتين، والرموش الطويلة لم تفارق ذهن سحر طوال اليوم.

لقد أشار الكاتب إلى الغنى المادي الذي يتميز به زعماء القبائل البدوية، فعندما طلب الشيخ سطعان سحر زوجة لابنه، شجع مدير الناحية صبحي أفندي على قبول طلب الزواج مشيراً

إلى أن الشيخ غني جداً، وسيعطي لصبحي أفندي مبلغاً كبيراً من المال كما أن سحر سوف تعيش في بحبوحة من العيش طوال حياتها.

لقد فضل الكاتب البدو على الموظفين الأتراك ذوي الأخلاق السيئة في أكثر من موضع في الرواية، فكثيراً ما يجري الكاتب على لسان شخصياته مقارنة بين البدو والموظفين الأتراك في المملحة، ويخلص إلى أن البدو لا يمكن أن توجد فيهم الصفات القبيحة المستشرية في الموظفين الأتراك مثل الدناءة وقلة الشرف، فمكان هذه الصفات السلبية توجد صفات إيجابية، مثل السماحة والشجاعة والصفاء.

لقد تناول الأدباء الأتراك حلب في رواياتهم ومذكراتهم، فتحدثوا عن تلك الولاية، مبرزين أهم جوانبها وخصائصها. ومن هؤلاء الأدباء علي كمال الذي قدم في آثاره للقارئ التركيّ صورة عن ولاية حلب تعكس الحياة السياسيّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة والثقافيّة فيها في العقد الأخير من القرن التاسع عشر. لقد لفت التنوع الثقافي في حلب انتباه الكاتب وانعكس ذلك في كتبه، فبدت حلب فيها مكاناً متعدد الثقافات، والأعراق، والأديان، تَتَلاقى فيه الثقافات المختلفة، وتتعايش جنباً إلى جنب، حيث يعيش فيها المسلمون والمسيحيون واليهود والعرب والترك والأرمن والأجانب. كما بدت حلب منفى للمعارضين للسلطة والمهملين لأعمالهم من الأتراك، حيث يكثر فيها المنفيون من مركز الدولة العثمانية، ولا غرابة في ذلك، لأن الكاتب عاش في فترة كانت فيها سياسة

النفي مُطبّقة بشكلٍ كبيرٍ، وكانت حلب من أهم المنافي بالنسبة للأترك. أما المنفيون إلى حلب فقد كان معظمهم أشخاصاً سلبيين.

إن التنوع الثقافي في المدينة، واستقطابها الأجانب من كل أنحاء العالم، إضافة إلى كونها مركزاً للمنفيين الأتراك جعل مراكز التسلية واللهو فيها كثيرة، فقد بدت حلب في آثار الكاتب مدينة تعج بأماكن اللهو والتسلية المتنوعة، ففيها يقيم التجار الأجانب والقنصليات الحفلات الأسبوعية، إضافة لأماكن التَّسلية واللهو التي يرتادها المنفيون من الأتراك، والسكان المحليون.

حلب علي كمال التي أحبها وأحبَّ الحياة فيها، سكانها المحليون بسطاء، والأجانب فيها أثرياء يعيشون في قصور عالية محاطة بالأشجار، وفقراؤها يعيشون في بيوت صغيرة تقع داخل السور، أما البدو الذين يعيشون في باديتها فهم نجباء يتمتعون بجمال خَلقي وخُلقي.

الإحالات:

*** مرسوم أصدره السلطان عبد المجيد عام **1839** يتضمن إصلاحات واسعة في جميع المجالات على النمط الغربي

1- انظرKefeli, Emel, **Edebiyat Coğrafyasında Akdeniz.** İstanbul: 3F Yayınevi, 2006. S148,153,164.

2- انظر Ahmet Midhat Efendi, **Felsefe-i Zenan; Letaif-i Rivayat,** hzl: Fazıl Gökçek,İstanbul, Çağrı Yayınları, 2001. S 85

3- أنظر Cenap Şahabettin, **Suriye Mektupları,** haz. Top, Baki, 1991

4- انظرŞerafettin Mağmumi, **Bir Osmanlı Doktorunun Anıları Yüzyıl Önce Anadolu ve Suriye;** çev. Cahit Kayra, İstanbul, Büke Yayınları, 2001. S. 224-235

5- انظرRefik Halit Karay, **Sürgün**, İstanbul, İnkılap ve Aka Kitabevleri, 1969.

6- انظر Uzun, Mustafa, "Ali Kemal" **DİV**, Türkiye Diyanet Vakfı, c.2. İstanbul 1989, s. 405-407.

7- انظرGezgin, Faruk, **Ali Kemal Bir Muhalifin Hikâyesi,** İsis yay. İstanbul 2010. S 238.

8- انظر المرجع السابق ص **247-248**.

9- Ali Kemal, **Ömrüm-Ali Kemal**, haz. Kayahan Özgül, Hece yay. Ankara, 2004. S. 169-170

10- انظر المرجع السابق ص **193**

11- انظر المرجع السابق ص **174**

12- انظر المرجع السابق ص **198**

13- انظر المرجع السابق ص **198**

14- انظر المرجع السابق ص**164**

15- انظر المرجع السابق ص**197**.

-16Ali Kemal, **Sorbonne Darülfünunu'nda Edebiyat-ı Hakikiyye Dersleri**; haz. Bahriye Çeri, Ankara, Hece Yayınları, 2007

-[17] Ali Kemal, **Ömrüm-Ali Kemal,** s 181-182

-[18] Ali Kemal, "Tûl-i Emel" **Peyam,** nr. 129, 31 Mart 1914, s.1.

-[19] انظر Ali Kemal,"Seyahat Hatıraları. Tunus Araplar ve Arapça " **İkdam**, nr.1871, 819, Eylül 1899, s.3.

-[20] انظر Ali Kemal, **Ömrüm-Ali Kemal**, s 201-202

-[21] انظر المرجع السابق ص 721

Ali Kemal, **Bir Safha-ı Şebâb,** İkdam Matbaası, Dersaadet -[22]1329/1913,s.3

-[23] المرجع السابق، ص: **90**

-[24] المرجع السابق **185-186**

-[25] المرجع السابق **114**

المصادر والمراجع:

- Ali Kemal, "Tûl-i Emel" **Peyam**, nr. 129, 31 Mart 1914, s.1

- Ali Kemal, **Bir Safha-ı Şebâb**, İkdam Matbaası, Dersaadet 1329/1913, 208 s

- Ali Kemal, **Ömrüm-Ali Kemal**, haz. Kayahan Özgül, Hece yay. Ankara, 2004.

- Ali Kemal, **Sorbonne Darülfünunu'nda Edebiyat-ı Hakikiyye Dersleri**; haz. Bahriye Çeri. Ankara, Hece Yayınları, 2007

- Ali Kemal,"Seyahat Hatıraları. Tunus Araplar ve Arapça " **İkdam**, nr.1871, 819, Eylül 1899, s.3-4

- Gezgin, Faruk, **Ali Kemal Bir Muhalifin Hikâyesi**, İsis yay. İstanbul 2010

- Kefeli, Emel, **Edebiyat Coğrafyasında Akdeniz.** İstanbul: 3F Yayınevi, 2006.

- Uzun, Mustafa, "Ali Kemal" **DİV**, Türkiye Diyanet Vakfı, c.2. İstanbul 1989, s. 405-408